خواطر مصيّف في لبنان

ملحوظات في الحالة الروحية في الجبل

للكاتب الاديب يوسف افندي مدوّر الماروني تريل القاهرة

بعد ان قضيتُ مدّة ثلاثة شهور من الصيف الماضي في لبنان المحبوب وتمتعت بهوائه المنعش، وروّيتُ من مائه البارد العذب، وهُنئتُ بالامن السائد فوق هاتيك الجبال وبين منعطفات الاودية وفي ما انبسط من السهول، ونعمتُ بالراحة والطمأنينة اللتين يشعر بهما من كانت قد اضنتهُ جلبةُ المدن ومتاعب الاعمال فيتمنى لو طالت برهة الصيف وسمح له عمله ان يبقى هناك مدةً اطول ولاسيما في تشرين الاول حيث يكثر العنب ويطيب التين وتصبح المياه اكثر عذوبة ولذا تقول العامة : « اللي ما شبع من حليب امه يشبع من ميّة التشارين . وما بين تشرين وتشرين صيف ثاني ». ولكن هو الواجب علينا بمبارحة تلك البلاد الجميلة الى حيث تنتظرنا الاشغال وبنا ما بنا من الشوق والميل الى لبنان بل نحن نحسد سكان لبنان على ما عندهم من النعم ونعجب كل العجب من ان بعضهم تولّد فيهم حبُّ المهاجرة وتركوا هاتيك البقاع التي يغبطهم بنعمتها سكان البلاد المجاورة

بعد كل هذا احببتُ ان اكتب كلمة في ما شاهدته من التغيُّر والتأخر في الامور المتعلقة بالواجبات الدينية . وان قيل ان هذا الامر ليس من شأني لاني لست اكليريكيًا ولا كاهناً أجبتُ ان الغيرة على الدين فرضٌ على كل احد لا يُعفى منه لا الاكليريكي ولا العالمي

واني اقسم مقالي الى قسمين : ١ً حالة العابد والكنائس في الجبل . ٢ً حالة الشعب الروحية .

اولًا حالة الكنائس في الجبل

يظهر ان الخراب المادّي الذي انزلته الحرب بالبلاد كان له القسم الوافر من

التأثير على الكنائس ايضاً . فانك لو دخلت بعض الكنائس في لبنان لا تشاهد فيها النظافة الواجبة لبيت الله ، ولا تشعر فيها بالخشوع الذي يجب ان تشعر به عند دخولك الى معبد ما ، بل يحسُّ الناظر بوحشة ونفور لِما يقع عليه نظره من عدم الترتيب وعدم الاهتمام في تنظيم الهياكل وتزيينها بل يرى نسيج العنكبوت معقوداً سرادقاتٍ في منعطفات الحنايا والزوايا ، والمقاعد مبدّدة على غير ما نظام . وهنا قلتُ عندما دخلت احدى الكنائس وشاهدت المقاعد فيها مبعثرة ومقلوبة وبعضها مكسّر : «ما احسن ايام ما كانت الناس تركع على الارض العارية وبعضهم يجثو على «طرّاحة» صغيرة ، ايام كانت الشعرة تفصل بين الرجال والنساء ولم يكن للمقاعد شأن . . »

لاح لي ان في بعض الجهات اظهاراً للاكرام والعبادة يكثرون من رصف صور القديسين بعضها بجانب بعض على درجات المذبح العليا يميناً وشمالاً ، ويا ليتها كانت موضوعة وضعاً مرتباً ، اذ بينها الكبيرة والصغيرة والتي من دون إطار والمقطوع منها جزء والمكسور قطعة من زجاجها الخ الخ . ولست اجد داعياً ولا مسوغاً لرصف الصور على جانبي المذبح . وقد شاهدت وانا اتجوّل في انحاء الجبل في كل كنيسة عدداً كبيراً من الصور معلّقة على الجدران لكن بطريقة خالية من سلامة الذوق ولطافة الترتيب مما لا يهيب بالقلب الى الخشوع . واغرب من هذا انهم في بعض الامكنة يدّعون امام الصورة او التمثال كل ما يُقدَّم لهُ من النذور مهما كان نوعها . نعم لا مانع من وضع ما يقدّمه المؤمنون من الدمى والادوات والحلى في علبة زجاجيّة بجانب الصورة المقدمة تلك هدايا للقديس صاحبها اظهاراً لعاطفة الشكر على النعم واستدراراً لغيرها ، ولكن ربطُ الشمعة مثلاً في ذراع التمثال او تعليق صرّة البخور وما شابهها بجانبه ليس من سلامة الذوق ولا من امارات التمدّن

وبعض الكنائس ليس لها موقد (سكرستيّة) إمّا بسبب الاهمال وإما للفقر وعدم المقدرة على بنيان الموقد ، فتجد آنية التقديس وأدوات الزينة مبعثرة مشتتة هنا وهناك وقد علاها الغبار وامست في حالة لا تليق بخدمة الجلال الالهي . اما كتب الصلوات الطقسيّة فلا تسلْ عن حالها ، منها المخلّع المتطايرة اوراقه والذي نخر اوراقه العثّ وكلها مشتتة على المنضدة التي يدعونها «بالقرّاية» فوقها وتحتها وقد لعبت بتلك الكتب ايدي الصبيان فاتلفتها

امّا عن ملابس التقديس واغطية المذابح فالسكوت أولى لانّ الكلام عن هذين الشيئين لمؤثر جدًا. اخبرني أحد الكهنة الاجانب الذين جاؤوا الى لبنان في الصيف الماضي قال: «ذهبت صباح يوم لاتلو قداسي في كنيسة القرية فما اشدّ ما كان عجبي اذ لم اجد بين ملابس التقديس «كتونة» نظيفة تصلح لان البسها «ناهيك بالقطع الصغيرة كالنصيف والصمدة والمنشفة» ولكن «ربك رحيم» كنت جلبت معي كتونة خاصة بي فارتديتها وقطّع التنشيف معي اينما توجهت فلم احفل بسواها. واذ رأيت ما يعلو اغطية المذبح من الاقذار عوّلت على ان اجلب معي في اليوم التالي غطاء افرشه حين قداسي، وعلى هذا النحو سرتُ حتى بارحت القرية»

هذا جزء من كثير مما يشاهد في كنائس لبنان من عدم الاعتناء بالنظافة والترتيب. وقولي هذا يتناول كثيرًا من قرى الجبل. ولست انكر ان هنالك كنائس يسود فيها النظام وتتجلى فيها النظافة غير انّ حالة كثير غيرها لمّا يستدعي الاسف

ولا يقولنّ القارئ: هو الفقر «سبب كل علة». كلّا يا مولاي: الفقر والحاجة شيء والاهمال وعدم الاعتناء شيء آخر. فاذا كنت فقيرًا ولا يمكنك ان ترتدي ثوبًا ثمينًا فالثوب البسيط الرخيص الثمن الذي عليك تقدر ان تحافظ على نظافته بان تتعهده بالغسل والتنظيف من آن الى آخر. وعليه فليسمح لي كهنة الرعايا والمتولون الوكالة على الكنائس ان اقول لهم ان ليس لهم ولا ادنى عذر في تركهم الكنائس على تلك الحال التي تجعل الاجنبي يسخر بنا ويهزأ بآدابنا

سمعتُ شبان احدى القرى يتحدثون في جمع مبلغ من النقود يضيفونه الى ما في صندوق الكنيسة من المال ليشتروا جرسًا كبيرًا عوض الجرس الحالي. فنظرتُ الى الكنيسة في داخلها فوجدتها محتاجة الى كثير من الامتعة التي هي اكثر اهميةً من تكبير الجرس. اي نعم اني قد لاحظت في جهات كثيرة من لبنان كنائس يعلوها جرس قنطاري وما ينيف عن القنطار وبعضها ذات جرسين وثلاثة ولكنها في الداخل خالية من ادوات الزينة «مفتقرة الى آنية تليق التقديس وليس من ينظر الى هذه الحالة السيّئة! اذًا ليس للفقر مجال في ما نحن في صدده

فعلى اللبنانيين اذًا ان يمعنوا النظر في الحالة التي صارت اليها كنائسهم وكما انهم

مهتمون في تحسين حالة المصايف ليؤمّ الى جبلهم الاجانب فيجدوا ما تطيب اليه نفوسهم من وسائل الراحة هكذا يجب عليهم ان يُعنَوا بتنظيف كنائسهم وتزيينها بكل ما يقدرون عليه فان النظافة والنظام يسدّان ما هنالك من النقص في الادوات والتحف الثمينة . ان بين المصيّفين الاجانب كثيرين ممّن هم غريقون في الدين يقومون باتمام واجباتهم نحوه في اوانها . فاذا جاؤوا الكنيسة ووجدوها على الحالة التي وجدنا فيها كنائس بعض قرى لبنان هذه السنة فما يقولون ؟ وأية افكار تخطر لهم وهم يعلمون ان المواربة والسخو القديم في الكثلكة ! أعلى هذه الحالة تكون معابد الكاثوليك ؟ . . .

ثانياً حالة الشعب الروحية

اردنا في المدة التي اقمناها بين ظهراني اللبنانيين وتجوّلنا في انحاء الجبل ان ننظر في الاعمال التقوية والواجبات الدينية وما صار اليها امرها بعد هاتيك الحرب الطاحنة التي نال لبنان من كوارثها مع بُعده عن ساحاتها ما اصاب غيره من البلدان الاخرى حيث كانت الجيوش تتطاحن وتجتاح الارض بخيلها ورجلها ، فماذا وجدنا ؟ رأينا والاسف ملءُ الفؤاد ان الحالة الدينية في بعض قرى الجبل منحطّة واي انحطاط ! لاحظنا ان الكثيرين ما عادوا يهتمون لحضور القداس ايام الآحاد والاعياد وان هم سادوا الى الكنيسة في مثل هذه الايام فعلى سبيل العادة فقط . لم نجد سوى النزر اليسير من اولئك يحترمون المعابد ! ولم تعد للكهنة حرمةٌ وإهابة لدى الشبان بل لدى الكهول والشيوخ ايضاً . وقليلون ايضاً بل قليلون جداً هم الذين يقتربون من منبر التوبة وبالتالي من المائدة السريّة وجلُّهم ان لم اقل كلهم من النساء . ولم يكن من يتناول التناول اليومي تكراراً سوى بعض الفتيان والفتيات من تلاميذ المدارس الذين ما برح لارشاد ونصائح رئيس المدرسة صدًى في قلوبهم يدفعهم الى اقتبال سرّ المحبة العظيم . واما الرجال والشبان والانسات في القرى فقد صار قسمٌ منهم الى حالة سيئة من الفتور واهمال الفروض الدينية . لم نجد في جهة مصيفنا في كسروان سوى اخويتين لقلب يسوع الاقدس وبعض اخويات الميتة الصالحة هي اسم لغير مسمّى اذ انها لا تضمّ الا بضع عجائز النساء اللواتي اذا اجتمعن لتلاوة الفرض لا يعرفن كيفية ذلك

سرنا اي سرور لما امر غبطة السيد البطريرك بتكريس الطائفة المارونية للقلب الاقدس بنوع احتفالي وبتجديد هذا التكريس سنوياً ومع ذلك لم نجد في قرى لبنان المارونية اخويات منضمة تحت لواء القلب الالهي تُعنى باقامة ساعة السجود التكنيرية ويتقدم افرادها من المناولة التعويضية في الجمعة الاولى من كل شهر . ليس شيء من ذلك في الجهات التي عرفناها من لبنان . وقد كان في بعض قرى كسروان قبل الحرب اخويات على اسم الحبل بلا دنس وكانت تضم عدداً غفيراً من الرجال والنساء فجاءت الحرب واكلت الاخضر قبل اليابس فانفرط عقد تلك الجمعيات التقوية ! والآن وقد عادت المياه الى مجاريها واضحت الناس في بحبوحة من النعم قد لحظنا مع الاسف انه لم يوجد الا قليلون اهتموا باعادة تنظيم الاخويات والجمعيات التي كانت فيما سلف من الايام تثمر الثمار اليانعة في حديقة الدين في لبنان ! . . .

والذي زاد في استغرابنا انما هو الاهمال الذي استولى على بعض آبائنا الكهنة خدمة الرعايا في لبنان . كنا نتمنى ان نحضر ذبائح القربان الاقدس ايام الآحاد والاعياد فلم نكن نحصل على مشتهانا لانهم ابطلوا هذه العبادة ولم يعودوا يحفلون بها

انه من جملة اوامر السيد البطريرك لكهنة الرعايا ان يقيموا الصلاة الفرضية جهورياً في مساء كل احد وعيد بطالة ولاسيما في مساء الاعياد الكبيرة . وقد كان قبل الحرب لبعض القرى شهرة عظيمة بهذا الامر من حيث اقامة الصلوات الطقسية في اوقاتها مساء العيد وصباحهُ . اما اليوم فكما قلت سلفاً ان كتب الصلوات ليس لها من يفتحها وقد نخرها العث وعلاها الغبار وحاكت عليها العناكب نسيجها . وامسى الاحتفال بالعيد عند اخواننا اللبنانيين قائماً بقرع الجرس ابتداء من قبل ظهر بيوم العيد حتى ظهر اليوم التالي بنوع متواصل على وجه التقريب حتى تصم الآذان ويشمئز السامعون من صوت الجرس الامر الذي لا يجري في جهة ما من بلاد النصارى سوى لبنان . اي نعم ان الجرس اصبح لعبة الشبان . ومما دلني على استيلاء الشبان على جرس الكنيسة انهم قبل دنو يوم العيد يرقون سطح الكنيسة وهناك يعالجون الجرس مغيرين له تركيبه او يثقلون «قرمته» او يحلون سير مضربته وامور اخرى يعرفونها هم حتى يصعب دقه ولا يعود «يربع» الا بشق النفس وبكبير عناء . ولم كل ذلك ؟ لكي يختبروا بعضهم بعضاً فيعرفون من هو القوي الشديد بينهم وبين شبان القرى

المجاورة الذين يقصدون خصيصاً (لتجربة الجرس)

وعليه فلم يعد الجرس جزءاً من الكنيسة يُقرَع لاستدعاء الشعب بل بات العوبةً في ايدي الشبان وليس تُقّت رادعٌ يردع

وكم من المرات كان الجرس سبباً للنزاع والقتال بين هؤلاء الشبان المتهوسين فأدى بهم الخصام الى اشهار السلاح واطلاق الرصاص وتدنيس الكنائس بالشتائم والالفاظ البذيئة وتحويل العيد الى مأتم يسود فيه العويل والنحيب. ولنا بحوادث عشقوت وريفون وقتيل كفرتيه منذ سنتين عبرة وذكرى!..

ولمّا شاهدت هذا الامر العائب سألت: أما من احد ينهي هؤلاء الاغرار عن عملهم؟ ولمَ لا يوقفهم عند حدودهم كاهن الرعية؟ فأجابني رجل من: «لم يعد يؤثر في شبان اليوم لا امر الكاهن ولا نصيحة كبير، فحذارِ من ان يسمعك احد منهم فيهينك...» (قلت) فما دام الامر على هذا المنوال لم يبقَ الّا ان تتداخل الحكومة في الحالة وتمنع بقوة رجالها (الامناء) الشبان من قرع الجرس في الاعياد الّا في اوقات استدعاء الشعب الى الكنيسة فتكفي القريةَ مئةُ دق الجرس ونتيجته الوخيمة.

والآن تُرى أتيجد طريقة لاصلاح الفاسد وتقويم الاعوجاج؟ وهل من دواء لهذه الادواء الدينية والادبية؟ أجل، ان العلة لم تستعصِ بعد والداء ليس بالمزمن فمن السهل استئصاله واصلاح ما افسد. وما الدواء الّا نفخ روح الدين واذكاء ناره في القلوب الفاترة بتأسيس الاخويات الدينية للرجال والنساء وانشاء الجمعيات التقوية للشبان والعمل على ترقية الاخلاق بافتتاح نادٍ ادبيٍّ في كل قرية كبيرة يختلف اليه رجالها وشبانها حيث يلقي عليهم كاهن عالم او شاب متعلم محاضرات في المواضيع التي من شأنها ان تميل بهم عن اللهو والاباطيل الى توسيع معارفهم فيقلعون عن تلك عاداتهم الغير المستحسنة ان لم نقل السيئة، وقد لا تخلو قرية، والحمد لله، من عدد غير قليل من هذه الناشئة الناهضة فعلى مثل هؤلاء مهمة اصلاح اخوانهم وتقويم معوجهم

وهنالك عادة اخرى قبيحة منتشرة الّا انها قديمة العهد فقد عرفناها من قبل الحرب ألا وهي اجتماع الباعة على اختلاف انواعهم في عيد شفيع القرية فيفرشون بضاعتهم وصناديقهم في ساحة الكنيسة وامام ابوابها وبينهم بائع الحلوى وبائع

الاحذية وبائع الفاكهة وصاحب اليانصيب واللاعب «بالنمر» . والذي نعرفه ان هذين النوعين ضرب من المقامرة وقد حرّمتهما الحكومة المصرية فمن يُضبَط وهو حامل « قرش اليانصيب او كيس النمر » يَنَلْهُ الجزاء الصارم . فما بال الحكومة اللبنانية قد غضّت الطرف عن ذينك اللعبين؟ . قلتُ ان هؤلاء الباعة يجتمعون امام ابواب الكنيسة فيضايقون المارّة والزائرين ويحوّلون ساحة الكنيسة الى سوق عمومية ويمسي العيد اذ ذاك موسماً تباع فيه السلع لا عيداً للقديس شفيع القرية ولا فرصةً لتقديم الاكرام له وطلب شفاعته . ولن اكون مبالغاً إن قلتُ ان اصوات الباعة ومناداتهم كانت تغلب على اصوات المرتلين القائمين بخدمة القداس ! لعمري انه يلزم لهؤلاء الباعة تلك المقرعة التي جرّدها السيد المسيح على زملائهم في هيكل اورشليم قائلاً لهم : بيتي بيت الصلاة . وانتم جعلتموه مغارةً للصوص !

امام كل كنيسة في القرى خلا باحتها القريبة ساحة كبرى خارج السور . أفلا يحسن باولئك البياعين والتجار المتنقلين ان يبسطوا سلعهم هناك بعيدين عن ابواب المعبد ؟ . ومما يستدعي العجب انه لم يوجد بين اكابر القرية واحد استفزّته الحمية الى ابعاد تلك الغوغاء والضوضاء عن الكنيسة اقله ساعة الصلاة !!!

فالعمل على إبعاد هذا الحيف عن امكنة العبادة انما هو من واجبات الحكومة ايضاً بان تأمر رجالها بابعاد الباعة عن حوش الكنيسة محافظةً على كرامة المقام وإراحة المصلين والزائرين كما ترى في البلاد المتمدنة حتى في مصر اذ ترسل مديرية الشرطة ايام الاحاد والاعياد نفراً من رجالها يقف امام كل كنيسة ومن واجباته المحافظة على السكون ومنع الغوغاء من الدنوّ من المكان

وهنا قبل ختام هذه العجالة لي كلمة بعد في الطقوس الكنائسية واعني بها المارونية لانها الاعمّ في لبنان . فقد حضرت كثيراً من الاحتفالات البيعية والقداسات الجبرية والاحتفالية غير الجبرية فلم اشاهد في بعضها ما يسمّى وحدة الطقوس

ان للموارنة مئاثر للطقسيات منشورة بالطبع غير انهم لا يتبعون في احتفالاتهم نصّ هذه المئاثر بل ترى منهم من يعمل ما يتراءى له ولا يبالي بترتيبات الطقس حتى صار لكل كنيسة او لكل قرية طقس ورتب خاصّة بها فامتنعت بذلك وحدة الطقوس

اما المرتلون الذين يقومون بخدمة الاحتفالات فغاية ما يُقال عنهم انهم «بابل» بعينها. لم نسمع في بعض الكنائس مرتلاً متقناً للانغام الكنائسية وليس ثمَّت اثنان يوافقان بعضهما في الانشاد بل امسى الترتيل البيعي فرصة للغواة والمدّعين لاظهار براعتهم ولا رابطة لانشادهم بل «اصبح كلّ يدّعي في معرفة الانغام الامامة ويلبس العمامة» (مقدمة قسطاس المزامير للخوري ج. عزيز) فاختلّ بذلك نظام الطقوس وذهب قوامها ورونقها لاسيما بما يخترعه المرتلون من الاناشيد ذات الالحان العالمية. وقد بلغني ان في غزير جوقةً مؤلفة للقيام بانشاد خدمة القداس الالهي فقصدت استماعها لاختبار مقدرتها في هذا الفن فوجدتها لا بأس فيها على انه يلزم افراد تلك الجوقة شدّة الاعتناء في التوقيع وان يمتنعوا عن التطرف في انشاد بعض المقالات موقعةً توقيعاً عالمياً. بيد ان هذه الجوقة تدلّ على وجود بعض الاهتمام في الطقوس وقد تبشر بنتيجة حسنة اذا ما اقتدى بها سائر القرى وتألف في كلٍ منها فرقة من الغلمان والشبّان للتمرّن على الالحان الكنائسية بطريقة مضبوطة مع المحافظة على الروح الطقسية

وخلاصة القول ان الطقس الماروني آئل الى الاضمحلال بعد التبلبُل اذا لم يتعهده الرؤساء بعناية خاصة فيعملون على تعليمه في المدارس تعليماً كلياً نظير كل علم من العلوم وكما ان المدارس تخصص جائزة لكل بارع في علم ما هكذا فلتخصص جوائز للمبرزين في معرفة الطقوس البيعية واتقان الحانها

هذا ما عنّ لي نشره عمّا شاهدت في الوطن العزيز من التأخر في الامور الروحية. وعليم هو الله بانني ما قصدت في كلامي الانتقاد محبةً بالانتقاد ولا للتشفي من غيظ وكره فانا ماروني صميم محب للمارونية غيور على سمعتها وهذه هي العاطفة الوحيدة التي دفعتني الى الكتابة اظهاراً للنقص والعيب حتى اذا بانا وعُرف مكانهما امكن اصلاحهما، والرب عليم بالسرائر

← المشرق ← تثني على كاتب هذه المقالة ونستوقف انظار اللبنانيين عموماً وكهنتهم خصوصاً ليعيروها بالاً فيرون أن يكون لبنان مع جماله الطبيعي واديان اهله موضوعاً لانتقاد الاجانب والمبشرين في نوعين من حيث فائدة اكثراهم لامور دينهم ونظام كنائسهم وحسن قيامهم بالرتب الطقسية. أفيليق ان تكون بيوت الخاصة انظف واحسن هندامًا من بيت الله. فليحرص اذن اهل لبنان على شرفهم ويظهروا وطنيتهم قبل كلّ بسعيهم في كل ما ينوط بخدمة تعالى وكرامة دينهم وفقاً لما ورد في المجمع اللبناني ومناشير البطاركة الأجلاء من الترتيبات اليمينة